الفصل الثاني

عناصر الثقافة ؟ ؟

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني

عناصر الثقافة

والآن .. وبعد أن انتهينا من محاولة استقصاء جذور « مصطلح الثقافة » ، ومعرفة معانيه المختلفة ، لعلنا ننتقل خطوة أبعد لنقف على عناصر الثقافة ومكوناتها ، فهي تتكون من مجموعتين رئيسيتين من العناصر هما : العناصر المادية، والعناصر غير المادية، ولعلنا نفصل فيهما بعض الشيئ، آخذين في الاعتبار أن الفصل بينهما ليس أمراً سهلاً، لسبب واحد وبسيط هو أن عناصر الثقافة كلها متكاملة ومتفاعلة ومتشابكة مع بعضها في آن واحد، ولكن متطلبات البحث والدراسة هي التي تجعلنا نلجأ إلى الفصل بين هذه العناصر ، بقصد الفهم والإحاطة.

أولاً : العناصر المادية :

وهذه العناصر تشتمل على الآتي :

١- الأشياء المادية ، مثل المساكن والشوارع والأسواق، وكذا وسائل المواصلات وغيرها، باعتبارها نتائج مادية للسلوك.

٢- طرائق وأساليب التعامل مع هذه الأشياء المادية واستعمالها،[١] هكذا يقول « قمبر » ومن معه. وإن كنا نتحفظ هنا على العنصر الثاني، لأن الأساليب والطرائق قد لا يحسن ادراجها ضمن الأمور المادية، إذ هي من الأمور المعنوية، بمعنى أننا لو نظرنا - مثلاً - إلى إشارات المرور التي تنتشر في معظم مدن العالم لوجدنا أن هناك مجتمعات يحترم أبناؤها تلك الإشارات ، وما تمثله من نظام، حتى ولو كانوا يقودون سياراتهم في أنصاف الليالي، أو حتى في أوقات الفجر حين تخف حركة رجال المرور ، بينما في مجتمعات أخرى لا يعير كثير

(١) محمود قمبر وآخران ، مرجع سابق، ص ٣٦.

من المواطنين هذه الإشارات أدنى اهتمام، فالقضية هنا قضية سلوك ، وبالتالي فهي من الأمور المعنوية ، وليست من « الأشياء » فهي جزء من التعامل مع الأشياء (إن صح التعبير) كما يقول المؤلفون السابقون، ولكنها لا ينبغي أن تندرج تحت العناصر المادية.

وفي هذا الجانب السابق يقول « سرحان » : إن المخترعات والصناعات والبناء والكساء وغير ذلك من الإنتاج المادي الذي توصل إليه الإنسان لإشباع حاجاته، إنما يتحدد استعمالها بالأفكار والاتجاهات والقيم التي تتمثل في حياة الناس ومستواهم الفكري والاجتماعي والاقتصادي، لذلك لا ينبغي فصل الجوانب المادية في الثقافة عن الجوانب المعنوية ، لأن كلا منهما تؤثر في الأخرى.[٢]

« كذلك تتكامل الثقافة حين يكون هناك توازن بين كل من الإنتاجين المادي والمعنوي فيها ، فلا يجوز أن يكون هناك تقدم ملحوظ في بناء المساكن، ورصف الطرق مثلا، بينما يكون هناك تخلف ملحوظ في التعليم ، وارتفاع نسبة الأمية. وقد يكثر استخدام الآلات الحديثة في مجالات الحياة دون أن يصاحبه تغيير في العادات والتقاليد والمفاهيم التي تتصل بتقبل الجماعة لها، وتنظيم حياتها على أساسها، ويرتبط بهذه الحقيقة ظهور مشكلات التغير الثقافي والتوجيه الاجتماعي».[٣]

والواقع أننا قد نختلف في هذه النقطة مع الكاتب ، فحديثة عن تكامل الثقافة، أي التوازن بين الإنتاجين المادي والمعنوي مفهوم ومنطقي، أما عبارته التي يقول فيها : « إنه لا يجوز أن يكون هناك تقدم ملحوظ في بناء المساكن ورصف الطرق مثلا، بينما يكون هناك تخلف ملحوظ في التعليم وارتفاع نسبة الأمية، وما تلا ذلك من عبارات حديثه السابق ففيها نظر .. !!

لقد فاته أن التغير حين يحدث في المجتمع يكون أسرع في الجوانب

---

(٢) منير المرسي سرحان، مرجع سابق، ص ص ١٣٣-١٣٤.

(٣) المرجع السابق، ص ١٣٤.

المادية منه في الجوانب الأخرى ، ولعل هذا هو الحال الذي كان في دول الخليج بالتحديد، وربما لا يزال سائداً في بعضها حتى الآن، فلقد تبنت هذه الدول خططًا طموح للتنمية خلال العشرين سنة الأخيرة ، نتيجة لاستثمار أموال الطفرة البترولية الهائلة التي أعقبت حرب رمضان/أكتوبر المجيدة عام ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م ، والتي جاءت نتيجة لتصحيح أسعار البترول، وكان من نتائج هذه الخطط أن أخذت مظاهر العمران العديدة (المادية) تتضح في كل ركن من أركان الخليج بشكل سريع، كذلك وصلت خدمات جديدة عديدة لجميع هذه الأركان حيث أسست الجامعات ، وبنيت المدارس، ورصفت الطرق، وشيدت منشآت هائلة من مطارات عملاقة، وموانئ ضخمة، بل إن هناك مدنا كاملة أقيمت في بعض الحالات، كذلك أنشئت شبكات كاملة للاتصالات، ربما لا تقل عن نظيراتها في الغرب، ولقد جرى كل ذلك في الوقت الذي كان يجري فيه تغيير الإنسان الخليجي من خلال التعليم والتثقيف، وبواسطة الخدمات الصحية والثقافية المتنوعة، ولكن سرعة التغيير في هذا الجانب كانت أقل بطبيعة الحال لأن التغيير في الأمور المادية أسهل وأسرع منه في البشر، طالما توفرت الإمكانات المادية، وتوفرت معها عزائم الرجال وتصميمهم على التغيير.[٤]

ثانيًا : العناصر غير المادية :

وهذه تشمل ما يلي :

١- اللغة ، وهي أداة الثقافة ووعاؤها.
٢- الفنون والآداب وسائر أنواع المعارف التي ينتجها الإنسان.
٣- الاتجاهات، والعادات ، والتقاليد، والمعايير الاجتماعية، والقيم.

---

(٤) يمكن مراجعة كتاب المؤلف : « التربية ومشكلات المجتمع في دول الخليج العربية: مشكلة العمالة الأجنبية ومشكلة الطاقة (معالجة اسلامية) » ، دار الابداع الثقافي ، الرياض، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

٤- الدين. (*)

٥- المعتقدات الشعبية، وهي تظهر فيما نسميه بالفلكلور أو التراث الشعبي من أمثلة ، وحكم، وأساطير، وحكايات ، وفنون شعبية.

والاتجاه هو ميل عقلي نحو أشياء معينة، وهذا الميل قد يكون إيجابيًا، أو سلبيًا بالحب أو الكراهية.

أما العادة فهي عبارة عن سلوك يتكرر بالوعي أو باللاوعي في موقف معين، كعادة وضع غطاء معين على رأس الرجل ، أو على رأس المرأة ، أو الأكل بطريقة معينة ثابتة.

أما التقاليد فهي مجموعة من الطقوس التي تتبعها مجموعة من الناس في مناسبات معينة كالموت أو الزواج.

أما المعايير الاجتماعية فالمعيار هو جملة السلوكيات المتوقعة من فرد ما، في موقف معين يؤدي دوراً اجتماعيًا محدداً ، بحكم وضعه في مكانة اجتماعية محددة في ذلك الوقت.

أما القيم الاجتماعية فهي الأحكام الثابتة في المجتمع على أشياء أو سلوكيات من حيث كونها حسنة أو رديئة ، طيبة أو قبيحة . (٥)

ولكننا هنا نختلف مع المؤلفين في تعريفهم للمعايير الاجتماعية، فلم يقل أحد إن المعيار هو « جملة سلوكيات » ، إذ المعيار أقرب للمقياس الذي يحكم به الناس على سلوكيات الآخرين ، ويتصرف الآخرون في ضوء المعايير التي تضعها الجماعة لهم ، ومن هنا نحكم على أشخاص بأنهم طيبون لأنهم

(*) كنا نود لو أن المؤلفين أفردوا جزءاً خاصًا بالدين يعالجونه فيه وحده، على أساس أنه العنصر الحاكم لحياة المجتمع المسلم بطبيعة الحال، وبحيث لا يعامل كغيره من عناصر الثقافة المادية الأخرى، وبذا يصبح مثله مثل الفنون والآداب ، وكذا سائر أنواع المعارف التي يبدعها الإنسان، لأنه ـ وببساطة شديدة ـ من عند الله. إنه « صبغة الله » جل وعلا، ولذا ينبغي ألا نقارنه بما يصنعه البشر بما فيهم من نقص وقصور بل وتناقض كذلك.

(٥) محمود قمبر وآخران: مرجع سابق، ص ص ٣٦ - ٣٧ .

تصرفوا في ضوء تلك المعايير وعلى أساسها ، كما نحكم على آخرين بأنهم غير ذلك لانهم لم يلتزموا بتلك المعايير.

كذلك فإن القيم أقرب ما تكون إلى المعايير ، حيث يفسرها « فؤاد البهي السيد » على أنها معايير اجتماعية ذات صبغة انفعالية قوية، وهي عامة تتصل من قريب بالمستويات الخلقية التي تقدمها الجماعة وتعتز بها، والفرد يمتصها من بيئته الخارجية الاجتماعية، ويقيم منها موازين يبرر على أساسها أفعاله ، كما أنه يتخذها هاديًا ومرشداً له في حياته ، وتنتشر هذه القيم في حياة الأفراد ، فتحدد لكل منهم خلانه وأصحابه، وكذا الأعداء.[٦]

(٦) فؤاد البهي السيد : « علم النفس الاجتماعي » ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٥٤م، ص ٢٩٤. هذا ويمكن لمن أراد التوسع في مجال القيم هذا أن يعود لكتاب الدكتور على خليل مصطفى أبو العينين : « القيم الإسلامية والتربية » ، مكتبة ابراهيم الحلبي ، المدينة المنورة ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.